

الفصل الأول

فترة اليقظة

من الحملة الفرنسية إلى ولاية اسماعيل

١٧٩٨ - ١٨٦٣

obeikandi.com

أهم أسباب اليقظة

١ - أسلحة علمية للحملة الفرنسية :

كانت الحملة الفرنسية ترمى إلى تكوين إمبراطورية شرقية قوية مستقرة^(١) ، لذلك اتخذت العلم سلاحاً ضمن أسلحتها ، وحشدت العلماء جنداً ضمن جنودها^(٢) . وكان من مظاهر ذلك أن أنشأ العلماء الفرنسيون المصاحبون للحملة في مصر ، مراكز للأبحاث الرياضية . ومراصد فلكية ، ومعامل كيمائية ؛ كما أنشأوا بعض المصانع ومعامل الورق ، ثم مجعاً علمياً للدراسة أحوال مصر الطبيعية والجغرافية ، والاجتماعية والاقتصادية ؛ والتاريخية والثقافية ؛ وكان ذلك أساساً لإمداد الحكومة الفرنسية بالمعلومات والتوجيهات والإحصاءات والخرائط ، ولتأكيد الوجود الفرنسي في مصر وإقامته على دعائم من العلم والخبرة . . . كذلك أقام الفرنسيون مطبعة عربية وأصدروا صحيفتين فرنسيتين ونشرة باللغة العربية ، كما أقاموا أيضاً مسرحاً للتمثيل ، كانوا يقدمون فيه رواية فرنسية كل عشر ليال ، وفتحوا مدرستين لتعليم أبناء الفرنسيين ، ومكتبة عامة جمعوا فيها ما حملوه معهم من كتب وما جمعه من مساجد مصر وأضرحتها . وكانوا يدعون بعض المصريين إلى مشاهدة ما بها من كتب ، كما كانوا يدعونهم إلى مشاهدة بعض تجاربهم العلمية ، وذلك لتأليف قلوبهم وإيهامهم بأنهم جاءوا لتحضيرهم والنهوض بهم^(٣) .

وأهل مما يرتبط بهذه المظاهر ، تشكيلهم للديوان ، الذي كان يضم تسعة

(١) انظر : تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ٦٦ .

(٢) انظر : تاريخ الحركة القومية ج ٢ ص ٧٩ ، ١١٨ .

(٣) اقرأ في الأعمال العلمية والفنية للحملة الفرنسية : تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ١١٨

أعضاء من علماء الأزهر ؛ وذلك للعمل على استتباب الأمن ، والتظاهر بأن الشعب يشارك في حكم نفسه (١) .

ويلاحظ أولاً ، أن أغلب تلك المظاهر الثقافية متصل بالعلم العملي ، كما يلاحظ ثانياً ، أن جميعها جاءت في صورة عدوانية ضمن الحملة الفرنسية الغازية . وون هنا لم يكن لها تأثير فعلي في وصل المصريين بالثقافة الأوروبية ، وبخاصة الثقافة الأدبية ، وإنما اقتصر تأثير كل هذه المظاهر على الإثارة أو الإيقاظ ؛ حتى أحس البعض بوجوب التغيير وتطلع إلى التسلح بوسائل أفضل ، وهذا ما عبر عنه الشيخ حسن العطار (٢) بقوله حينذاك : « إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد ما بها من العلوم والمعارف » (٣) .

٢ - أول الاتصال الفعلي بالثقافة الحديثة :

كان محمد علي جندياً ألبانيا مغامراً ، قد جاء إلى مصر ضمن الحملة التركية التي اشتركت في إخراج الفرنسيين سنة ١٨٠١ م . وقد امتدت أطماعه إلى الاستقلال بمصر أولاً ، ثم تأسيس إمبراطورية كبيرة ثانياً . واستطاع بدهائه ومكره أن يخذع القوى الشعبية التي ظهرت قوتها أثناء مقاومة الفرنسيين ، حتى ولته تلك القوى حاكماً على البلاد سنة ١٨٠٥ م . وما لبث أن خان تلك القوى ، فاضطهد زعماءها وعلى رأسهم السيد عمر مكرم ، كما غدر بالمماليك فنكل بهم في مذبح القلعة . ورأى أن الحاجة ماسة إلى قوة مسلحة تخمد القوى الشعبية التي يدين لها بعرشه ، وترهب بقايا المماليك الذين يتازعونه سلطانه ، كما نحىه من تركيا التي تملك عزله ، وإنجلترا التي تهدد أطماعه (٤) . فعمد إلى إنشاء جيش قوى ، وعمل كل ما من شأنه أن يحيط هذا الجيش

(١) انظر : المصدر السابق ج ١ ص ٩٥ وما بعدها .

(٢) هو من كبار علماء الأزهر ، ومن تولوا مشيخته ، وقد عاصر الحملة الفرنسية وكان على صلة ببعض علمائها . وهو أستاذ لرفاعة الطهطاوى . وقد توفى سنة ١٨٣٥ م .

(٣) انظر : الخطط التوفيقية لعل مبارك ج ٤ ص ٣٨ .

(٤) اقرأ عن محمد علي بالتفصيل في : تاريخ الحركة القومية للرافعى - ٢ ص ٣١١ وما بعدها ، وج ٣ .

بأسباب القوة ، فأنشأ مدرسة حربية ، ثم مدرسة للطب ليقوم أبنائها بعلاج الجيش ، ثم أنشأ مدرسة للصيدلة ، وأخرى للطب البيطري . وأخرى للهندسة . كما أنشأ عدداً من المدارس الابتدائية والتجهيزية (١) .

وقد أستقدم محمد علي - أول الأمر - الأساتذة الأجانب للتدريس في المدارس المختلفة ؛ ونظراً لعدم معرفة هؤلاء بلغة البلاد أو معرفة التلاميذ بلغتهم ، فقد استعان بالمرجمين من السوريين والمغاربة وغيرهم (٢) .

كذلك أرسل محمد علي البعثات إلى أوروبا ، ليقوم أبنائها فيما بعد بمطالب الجيش ، وللتدريس في تلك المدارس التي هي في خدمة الجيش . وقد تعددت البعثات وتنوعت ، بين هندسية وطبية وزراعية وصيدلية وقانونية وسياسية وكيمائية ، كما كان منها بعثات للتخصص في الطباعة والحفر والميكانيكا وغيرها (٣) .

وهكذا كان أول لقاء عملي بين المصريين والثقافة الغربية في العصر الحديث . وقد أنتج هذا اللقاء ثماراً طيبة ؛ فقد عاد هؤلاء المبعوثون بعلم جديد وعقلية جديدة إلى بلادهم ، فعلموا في المدارس وعملوا في المصالح ، وترجموا وألّفوا وخططوا ، وبهذا وضعوا أساس الحركة الثقافية والأدبية الحديثة . كما بدعوا تطوير اللغة بما ترجموا إليها من علوم حديثة . وبما أمدوها به من مصطلحات جديدة ، ثم بما عبروا عنه من أفكار وموضوعات متنوعة . أكثرها يتصل بالحياة ، ويرتبط بموكب الثقافة الإنسانية المتطورة .

وكان من أجل مظاهر ذلك ، مدرسة الألسن التي اقترح إنشاءها رفاعة الطهطاوي ، وعُهد إليه بإدارتها . وكانت تعنى بدراسة اللغات الفرنسية

(١) انظر : تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان - ج ٤ ص ١٩ وما بعدها ، وتاريخ التعليم في عصر محمد علي لأحمد عزت عبد الكريم .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية - ج ٤ ص ٣٠ ، ١٦٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٠ - ٢١ ، وتاريخ التعليم في عصر محمد علي لأحمد عزت عبد الكريم ص ٤٣ - ٥٣ .

والإيطالية والتركية والفارسية ، إلى جانب آداب اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا والشريعة الإسلامية والشرائع الأجنبية .

وقد استطاعت مدرسة الألسن بفضل خريجها ، أن تترجم كثيراً من الكتب القيمة ، كما ترجم رفاة رسائل عديدة في مختلف الفنون والعلوم ، وترجم كذلك بعض قطع من الشعر الفرنسي ، من بينها نشيد « المرسييليز » ، وترجم دستور فرنسا وعلق عليه بوعى لمفاهيم الحرية وحقوق المواطنين ونظام الحكم (١) .

ولعل من أهم المظاهر الثقافية التي عرفت في تلك الآونة ، إنشاء المطبعة الأميرية سنة ١٨٢٢ ، ثم إصدار صحيفة سميت أولاً باسم « جورنال الخديو » ، ثم أخذت اسم « الوقائع المصرية » . وكانت تخرج أولاً بالتركية والعربية ، ثم صارت تكتب بالعربية وحدها (٢) .

وليس من شك في أن تلك الألوان الثقافية قد أثمرت ثماراً طيبة منذ تلك الآونة ، رغم ما كان من نكسة للثقافة وتعويق للفكر في عهد عباس الأول وسعيد ، على اختلاف في درجة التعويق ، ومظهر النكسة بين هذين الحاكمين الرجعيين (٣) .

(١) تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعي ج ١ ص ٤٧٨ وما بعدها . وقرأ عن رفاة في : رفاة الطهطاوى للدكتور أحمد بدوى ، والخطط التوفيقية لعل مبارك ج ١٣ ص ٥٣ ، وتراجم مشاهير الشرق ج ٣ ص ١٩ ، وتاريخ الحركة القومية للرافعي ج ٤ ص ٤٧٠ وما بعدها .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٣ ص ٦٣ وما بعدها ، وأدب المقالة الصحفية في مصر للدكتور عبد اللطيف حمزة ج ١ ص ١١٠ ، ١٢٦ ، ١٢٧ . وتاريخ الحركة القومية للرافعي ج ٣ ص ٥٣٧ - ٥٣٨ .

(٣) أغلق عباس المدارس بما في ذلك مدرسة الألسن ، واستدعى أعضاء البعثات ونفى رفاة الطهطاوى إلى السودان ، وأمر أولاً بقصر الترجمة على التركية ، ثم ألغاهاً نهائياً . أما سعيد فرغم أنه أتاح بعض الفرص للمصريين بإلغاء نظام الاحتكار وإباحة الترقى في الجيش إلى رتبة ضابط ؛ فإنه قد ألغى ديوان المدارس ، وأوقف مطبعة بولاق وعطل حركة الترجمة والنشر . اقرأ : تاريخ التعليم في مصر - عصر عباس وسعيد ، لأحمد عزت عبد الكريم .

وهناك ملاحظات على تلك الحركة الثقافية التي كانت في عهد محمد علي ،
منها أنها دارت - قبل كل شيء - حول الجيش ولم تتجه أساساً إلى إضاءة
الحياة المدنية ، ومنها أنها عنيت أولاً بأبناء الأتراك والمماليك ، وكان حظ أبناء
الشعب منها ضئيلاً ، ومنها أنها اهتمت - أكثر ما اهتمت - بالجوانب العملية
والمادية ، ولم تعط إلا القليل للجوانب النظرية والأدبية .

ولهذا كله لم يكن تأثير تلك الحركة الثقافية على الحياة الفكرية والأدبية
قويّاً ، وخاصة إذا ذكرنا أن الشعب كان في ذلك العهد يعاني من سوء الحالة
الاقتصادية ما لا يمكنه أن يفرغ لفكر أو يقبل على أدب ؛ فقد نزع محمد
على الأرض من يد الفلاحين وأصبح هو المالك لكل شيء ، أما الناس عنده
فهم أشبه بآلات تعمل لتنتج له ما يرضى طمعه ، كما كان الوالي هو صاحب
الأمر في كل شيء ، وليس للشعب رأى في أمور بلده ، بعد نفي الزعامات
الشعبية واضطهاد العناصر الوطنية ، وحكم الشعب حكماً استبدادياً غاشماً .

وأهم الثمار التي جنيت من هذه الحركة الثقافية هي ظهور جماعة من المثقفين
المصريين ، الذين نهلوا من ثقافة الغرب وعرفوا لغته وبعض أدبه ، وأصبحوا
يمثلون - آخر الأمر - لوناً جديداً إلى جانب اللون التقليدي الممثل في علماء
الأزهر حينذاك . وهؤلاء المثقفون الجدد سيقومون هم وتلاميذهم بريادة التيار
الثقافي الجديد والتبشير بحياة أدبية جديدة ، رغم ما حدث من تعويق وانتكاس
في عهدي عباس وسعيد على ما سبقت الإشارة إليه^(١) .

وربما كان من ثمار تلك الحركة كذلك ، انتعاش اللغة العربية بعض
الانتعاش ، وتجدها بعض التجدد ، وذلك لأنها أصبحت لغة العلوم الحديثة
ولغة الصحافة الجديدة ووسيلة الأفكار والنظم الوافدة ؛ فاتسعت للمصطلحات
العلمية والفنية ، ومالت أكثر إلى الموضوعية ، وتخلصت نوعاً من الركاسة
والتكلف . وربما كانت تلك بداية اللغة العربية الحديثة المتطورة^(٢) .

(١) اقرأ الهامش السابق .

(٢) تطور الرواية العربية للدكتور عبد المحسن بدر ص ٢١ .

obeikandi.com

الأدب وأولى محاولات التجديد

أما الأدب فقد ظل - في جملته - على ما كان عليه من قبل ، فكان أبرز الأدباء طائفة من الشيوخ ذوى الثقافة التقليدية ، ومن عاشوا على التراث الأدبي المتصل بالعهد التركي . ولم يظهر من بين أصحاب الثقافة الحديثة من يمثلون اتجاهًا مقابلاً في الأدب للاتجاه القديم ، كما حدث في العلم ؛ لأن التحول كان تحولاً علمياً ، لم يمس الحياة الأدبية مساً واضحاً . ومع ذلك فقد ظهر في كتابات قلة من ذوى الثقافة الجديدة بعض لمحات تجديدية جديدة بالتسجيل في الشعر والنثر على السواء وهذا تفصيل القول في كل من الفنين الأدبيين .

١ - الشعر :

كان أكثر الشعر من هذا اللون التقليدي المتخلف الرديء ، الذى يستر هزاله وتمهاته بألوان من المهارة اللفظية ، والحيل اللغوية ، والحسنات البيعية المتكلفة ؛ كعمل أبيات تقرأ من اليسار كما تقرأ من اليمين ، أو أبيات كل كلماتها معجم الحروف ، أو كل كلماتها مهمل الحروف ؛ وكعمل أبيات أوائل حروفها تؤلف بيتاً آخر أو أبياتاً من الشعر ، أو تدل على اسم معين أو تاريخ خاص ؛ وكعمل أبيات كل كلماتها مبدوءة بحرف معين ، أو كل كلماتها مفرقة الحروف ، وما إلى ذلك .

ومن النماذج السائرة في هذا الاتجاه ، أغلب أشعار الشيخ على الدرويش^(١) ؛

(١) اقرأ ترجمته في : تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٤ ص ٢١٢ ، والآداب العربية في القرن التاسع عشر للويس شيخوسج ١ ص ٧٩ ، وأعيان البيان للسندوب ص ٤٦ ، وأعلام من الشرق والغرب لمحمد عبد الغنى حسن ص ٥٦ .

فهو مثلاً يتغزل ببيتين بادئاً كل الكلمات فيهما بحرف العين ، فيقول :

عَلَى عَلَى عَيْنِكَ عَدْلٌ عَوَاضِلُ
عَذَابٌ ، عَلَيْهَا عِنْدَ عَاشِقِهَا عَذَابٌ
عِذَارِكَ عُنْدِي ، عَجَبٌ عِطْفُكَ عُدَّتِي
عِيونُكَ عَضْبِي عَادَ عَائِبَهَا عَضْبٌ^(١)

ومثلُ الشيخِ على الدرويش كثيرون ، مثل الشيخ محمد شهاب الدين المصري^(٢) ، الذي يقول في الوصف ، جاعلاً كل همه أن يأتي بكل الكلمات مفرقة ، مع ما أمكن من الجناس :

رَاحَ دَنِ أَدْرَتَ أَمَّ ذَوْبَ وَرِدٍ رَقَّ إِذْ دَارَ دُونَ آسٍ وَوَزِدٍ
رُبُّ رَوْضٍ أَرَاكَ دَوَّحَ أَرَاكَ دُونَ أَوْرَاقٍ وَرَدِهِ رَاقٍ وَرِدِي
إِنْ دَوَى زَارُهُ وَازِنَ رَوَاهُ دَرٌّ وَذَقِ وَرَدَهُ أَيَّ رَدٍّ^(٣)

وقد كانت بعض نماذج الشعر في تلك الفترة تخلو من الألاعيب والمحسنات ، ولكنها تأتي سطحية الفكرة ، مهزوزة الصورة فاترة التأثير . ومن ذلك قول الشيخ حسن قويدر^(٤) :

يَا طَالِبَ النَّصِيحِ خُذْ مِئْتِي مُجَبَّرَةً
مُتَلَقَّسِي لِإِيهَا عَلَى الرَّغْمِ الْمُقَالِيدُ
عَرُوسَةٌ مِنْ بَنَاتِ الْفِكْرِ قَدْ كُسِّبَتْ
مَلَاخَةٌ وَلَهَا فِي الْخُلْدِ تَوْرِيدُ
كَأَنَّهَا وَهْيُ بِالْأَمْثَالِ نَاطِقَةٌ
طَيْرٌ لَهُ فِي صَمِيمِ الْقَلْبِ تَغْرِيدُ
احْفَظْ لِسَانَكَ مِنْ لَغْوٍ وَمِنْ غَلَطٍ
كُلُّ الْبَلَاءِ بِهَذَا الْعَضْوِ مَرْصُودُ

(١) ديوان السيد على الدرويش ص ١٧ .

(٢) اقرأ ترجمته في : الآداب العربية للويس شيخو ج ١ ص ٨٤ وما بعدها ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ج ٤ ص ٢١٣ ، وأعيان البيان السندي ص ٢٥ ، وأعلام من الشرق والغرب لمحمد عبد الغني حسن ص ١٦ .

(٣) ديوان السيد محمد شهاب الدين ص ٦ .

(٤) اقرأ في ترجمته : الآداب العربية للويس شيخو ج ١ ص ٥٣ ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ج ٤ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ ، وأعيان البيان السندي ص ١٧ .

واحذر من الناس لا تركز إلى أحد
بـواطنُ الناس في ذا الدهر قد فسدت
فالحلل في مثل هذا العصر مفقود
فالشر طبع لهم والخير تقليد^(١)

على أن نماذج قليلة من شعر تلك الفترة كانت أقل تكلفاً ، وأكثر قرباً
من روح الشعر ، ومن تلك النماذج قول الشيخ حسن العطار^(٢) رثياً :

أحاديثُ دهرٍ قد ألمَّ فأوجعا وحلَّ بنادى جمعنا فتصدعا
لقد صال فينا البين أعظم صولة فلم يُخلِ من وقع المصيبة موضعا
وجاءت خطوب الدهر تترى فكلما مضى حادث يعقبه آخرُ مسرعا
وحل بنا ما لم نكن في حسابه من الدهر : ما أبكى العيون وأفزعا
خطوب زمان لو تمادى أقلها بشامخ رضوى أو ثبيرٍ تضعضعا
وأصبح شأن الناس ما بين عائد مريضاً وثانٍ للحبيب مشيعا
لقد كان روض العيش بالأمن يانعا فأضحى هشياً ظله متشععا
أبحسن ألا يبذل الشخص مهجة ويبكى دما إن أفنت العين أدمعا
وقد سار بالأحباب في حين غفلة سرير المنايا عاجلا متسرعا
وفي كل يوم روعة بعد روعة فله ما قاسى الفؤاد وروعا^(٣)

ولعل السبب في قرب بعض نماذج قليلة كهذه من روح الشعر ، أن أصحابها
كانوا على شيء من الصلة بالشعر القديم الجيد . فالشيخ العطار مثلاً قد جمع
طائفة من أشعار ابن سهل الإشبيلي ، قد نشرت على أنها ديوان هذا الشاعر

(١) الآداب العربية للويس شيخوخ ج ١ ص ٤٩ .

(٢) اقرأ ترجمته في : تاريخ الجبرتي ج ٤ ص ٢٣٢ ، والمخطط التوفيقية ج ٤ ص ٣٨ ،
بمناهج الألباب المصرية لرفاعة الطهطاوى ص ٣٧٦ ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان
ج ٤ ص ٢٣٢ ، وتاريخ الحركة القومية للرافعى ج ٣ ص ٤٧٢ .

(٣) هذه الأبيات من قصيدة واردة في الجبرتي ج ٤ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ ، وهي في رثاء

الأندلسي الكبير^(١) . وهذا دليل على صلة هذا الشيخ ببعض نماذج الشعر القديم الجيد .

بل إن نماذج أقل من السابقة القريبة من روح الشعر ، قد ظهرت في أواخر تلك الفترة ، وتضمنت أوائل سمات التجديد ، وإن لم تكن من الشيعو بحيث تعد اتجاهاً . وكان أصحاب هذه النماذج ، هم بعض تلاميذ ذلك الجيل السابق ، وكانوا ممن أضافوا إلى ثقافتهم العربية ثقافة أجنبية . فقد نظم رفاعه الطهاوي^(٢)

(١) هو من شعراء القرن السابع الهجري عاش أكثر حياته في إشبيلية ، وكان يهودياً فأسلم ثم مات غريقاً وهو في رحلة بحرية . وكان معروفاً بركة الغزل وعذوبة الشعر . كما كان من الوشاحين الكبار .

(٢) ولد في طهط سنة ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) ، وتنقل مع والده في بعض أقاليم الصعيد ، وحين توفي والده وهو صغير تولى أخواله تربيته ، وبعد أن حفظ القرآن ومبادئ علوم اللغة والدين قدم على الأزهر ، ودرس على كبار العلماء فيه ، وكان من أهم أساتذته الشيخ حسن المطار ، الذي كان يقرب رفاعه ويؤثره بدروس وتوجيهات علمية قيمة . وبعد أن قضى رفاعه في الأزهر ثمان سنوات . عين واعظاً وإماماً لإحدى فرق الجيش لمصرى ، وبعد نحو عام ، اختير إماماً للبعثة التعليمية الموقدة إلى فرنسا ، وكان الذي زكاه هذه المهمة أستاذه الشيخ حسن المطار . وفي فرنسا لم يقنع بمهمة الإمامة بل تعلم اللغة الفرنسية ، وشارك أعضاء البعثة في الدرس ، بل فاقهم في ذلك ، والغالب أنه ضم إلى أعضاء البعثة منذ أهدى استعداداً فائقاً لهذه المهمة . وقد اتجه بصفة خاصة إلى إتقان الترجمة ، التي أجادها إجادة فائقة . وإلى ذلك درس التاريخ والجغرافيا والأدب والرياضيات والطبيعات والقوانين .

وبعد نحو خمس سنوات عاد إلى مصر ، فعين مترجماً في مدرسة الطب ومدرساً للترجمة بالمدرسة الفرنسية الملحقة بها ، كما أسند إليه إدارة المدرسة التجهيزية التي كانت تعرف بمدرسة المارستان . ثم نقل إلى مدرسة المدفعية بطره ، وعهد إليه بترجمة العلوم الهندسية والفنون الحربية ، ثم أعفى من هذا العمل ، وأسند إليه أمر نظارة مكتبة المدرسة التجهيزية بالقصر العيني وكانت مكتبة كبيرة تحوى ١٥,٠٠٠ مجلد معظمها بالفرنسية والإيطالية ، كما أسند إليه رئاسة فرقة الجغرافيا بهذه المدرسة وأخيراً نقل إلى رئاسة مدرسة الألسن ، التي ارتبط اسمها به ، والتي صارت أشبه بكلية آداب وحقوق وتجارة معاً ، وبعد نجاح باهر لمدرسة الألسن ، ألفت في عهد عباس ونقل رفاعه إلى السودان للإشراف على مدرسة ابتدائية هناك . وقد ضاق صدر رفاعه بهذا النفي كما فجع في مدرسة الألسن . =

بعض الأشعار الوطنية ، كما نظم بعض الأناشيد الحماسية : كذلك نظم صالح مجدى (١) - تلميذ رفاعة - طائفة من الأناشيد التي نراها في نهاية ديوانه . وكل من الشعر الوطنى وشعر الأناشيد ، ذو طابع تجديدي واضح ، على الأقل إذا قيس بما كان من طابع الشعر في تلك الفترة . وذلك أن الشعر الوطنى وشعر الأناشيد الحماسية ، فيه حديث عن الوطن بهذا المفهوم السياسى والحضارى الجديد ، وفيه كذلك تمجيد لهذا الوطن ، والحث على افتدائه وبذل كل شيء فى سبيله . . ثم إن الأناشيد بمخاصة فيها - إلى جانب تمجيد الجيش - تلوين فى موسيقى الشعر ، من حيث تنوع الوزن وتعدد القافية ، ورعاية تناسق خاص بين الأجزاء ، واختيار إيقاع ملائم ، يناسب الإنشاد الجماعى ، أو يساير خطوات الجند ومن إليهم . . وكل هذا جديد ، يذكّر بالفضل للرائد الطهطاوى وتلميذه صالح مجدى .

ومن نماذج شعر رفاعة الوطنى ، الذى يأتى متناثراً فى قصائده قوله :

ولئن حلفتُ بأن مصر لجنته
وقطوفها للفائزين دوانى

= ولما ولى سعيد خلفاً لعباس ، أعيد رفاعة إلى مصر ، فحاول استئناف رسالته فعين ناظراً ثانياً للمدرسة الحربية ، ثم رئيساً لها فأدخل فيها كثيراً من العلوم المدنية ليعوض بها مدرسة الألسن ، حتى لقد ألحق بها قلماً للترجمة ، جعل عليه تلميذه صالح مجدى . . ولكن المدرسة الحربية ألغيت بعد حين على يد سعيد وعطل نشاط رفاعة الجم . وقد ظل بغير منصب حتى عهد إسماعيل ، ثم عين عضواً فى « قومسيون الديوان » الخاص بالمدارس ، كما عين عضواً فى « القومسيون » الخاص بالنظر فى المكتبات . ثم اختير ناظراً لقلم الترجمة . وحين أنشئت صحيفة روضة المدارس جعلت تحت نظارته . وظل فى هذه المناصب حتى توفى سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣) م .

اقرأ ترجمته فى : الخطط التوفيقية لعل مبارك ج ١٣ ص ٥٣ ، ومشاهير الشرق لجورجى زيدان ج ٢ ص ١٩ ، وتاريخ الحركة القومية للرافعى ج ٣ ص ٤٧٠ ، ورفاعة الطهطاوى للدكتور أحمد بدوى .

(١) اقرأ ترجمته فى مقدمة ديوانه المطبوع ، وهى بقلم ابنه محمد ، والخطط التوفيقية ج ٨ ص ٢٢ ، والآداب العربية للويس شيخو ج ٢ ص ١٨ ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٤ ص ١٩٤ .

والنيل كوثرها الشهي شرابه لأبركل البر في أيما في (١)
وما يصلح شاهداً على ريادة رفاة لفن الأناشيد الحماسية قوله :

يا أيها الجنودُ والقادة الأسودُ
إن أممكم حُودُ يعود هامي المدمعُ

* * *
فكم لكم حروبُ بنصركم توبُ
لم تشكّم خطوبُ ولا اقتحام معمعُ

* * *
وكم شهدتم من وغي وكم هزمتم من بغي
فن تعدى وطني على حماكم بصرع (٢)

وما يلفت النظر ويحمل على الإعجاب ، ما نراه في بعض هذا اللون من شعر رفاة من تلوين في موسيقى الشعر ، وخروج على رتبة النغم خروجاً لم يألفه الشعر العربي ، لا في عصر الشاعر ولا فيما قبله من عصور ، ولا نكاد نجد له شبيهاً إلا عند الأندلسيين الوشاحين المجيدين . ويمثل هذا اللون من الشعر ، يعتبر رفاة من رواد التجديد في موسيقى الشعر الحديث . ومن شواهد ذلك قوله :

يا حزينا قم بنا نسودُ فنحن في حربنا أسودُ
عند اللقاء بأسنا شديدُ هامُ عدانا لنا حصيدُ
حامى حمى مصرنا سعيدُ في عصره مجدنا يعدُ
يجنده المجددُ وسيفه المهندُ

(١) ورد هذان البيتان ضمن قصيدة لرفاعة في : تخلص الإبريز في تخلص باريز

ص ١٩١ .

(٢) هذا النشيد وارد في مواقع الأفلاك رفاة الطهطاوى ص ١٠ .

ونصره المؤيد وعزه المشيد

في عصره مجدنا يعود^(١)

فالشاعر فضلا عن تلوينه للقوافي في هذا النشيد ، قد استخدم بحرين ؛ إذ استخدم مخلع البسيط في الأسطر الطوال ، واستخدم مجزوء الرجز في الأسطر القصار ، وهذا ما لم يجرؤ عليه إلا أئمة التجديد من الوشاحين أنفسهم .

وأغلب الظن أن رفاة - رائد هذا الشعر الوطني ، ورائد فن النشيد بصفة خاصة - قد تأثر بما قرأ وسمع من شعر فرنسي وربما تأثر في هذا الباب بالذات ، بنشيد المارسييليز - نشيد الثورة الفرنسية المعروف - الذي ترجمه رفاة ضمن ما ترجم من آثار الفكر الفرنسي^(٢) . وأغلب الظن كذلك أن رفاة كان على معرفة ببعض نماذج الموشحات التي من خصائصها تنوع الأوزان والقوافي . وقد استطاع رفاة بدكاء أن يطوع هذا القالب الغنائي الأندلسي ، لمضمونات وطنية وحماسية ، فكانت بواكير الأناشيد في الأدب الحديث .

وخلاصة القول في شعر تلك الفترة إذن ، أن الطابع العام كان الطابع التقليدي المتخلف الرديء ، الذي منه نماذج تعتمد إلى الألعيب والمحسنات ، كأكثر نماذج الشيخ الدرويش والشيخ الشهاب ، ومنه نماذج تنجو من الألعيب والمحسنات ، ولكن تتورط في السطحية والاهتزاز والفتور ، وبالإضافة إلى هذا الطابع العام كانت توجد نماذج قليلة أقرب إلى روح الشعر ، كبعض نماذج الشيخ العطار ، ثم كانت توجد نماذج أقل ، تحمل بواكير التجديد ؛ كوطنيات الطهطاوى وأناشيده ، وكأناشيد تلميذه صالح مجدى . فهذه الفترة على طابعها التقليدي المتخلف الرديء ، قد حوت في آخرها بذور التجديد الشعرى الذى سيتضح في الفترة التالية .

(١) انظر : رفاة الطهطاوى للدكتور أحمد بدوى ص ١٢٢ .

(٢) حول ما ترجمه رفاة متصلا بالأدب ، اقرأ : رفاة الطهطاوى للدكتور أحمد بدوى

٢ - النشر :

أما النشر فقد كان معظمه كالشعر في عمومه ، من حيث التقليدية المتخلفة . فهو غالباً يعبر عن موضوعات ساذجة ، ويتوقع في الرسائل والمقامات ونحوها ، من الأنواع التقليدية ، ثم هو يتستر بالمحسنات ، ولا يسلم كثيراً من التهافت . ومن أمثلة ذلك قول الشيخ علي الدرويش من رسالة يهدد فيها أحد الشعراء بالهجاء :

« وإننى نصحتك نصيحة الشفيق ، لعلك من الغي تفيق ، فإن رجعت نجوت بالهرب ، وإلا فوحق من أخلاك من الأدب ، وجعل شعرك ضحكة للعجم والعرب ؛ أعمل فيك دقيقة من صناعة الآداب ، ما جاء بها أحد على ممر الأحقاب ، وما سمعها سامع إلا وحفظها ، ولا نظرها ناظر إلا ولحظها ، فإن حفظت عرضك فيها ، وإلا فأنا لها » (١) .

ومنه أيضاً - وإن كان أقرب نوعاً إلى الفن - قول الشيخ حسن العطار في رسالة :

« أما بعد فإن أحسن وشي رقيته الأقلام ، وأبهى زهر تفتحت عنه الأكام ، عاطر سلام يفوح بعبير المحبة نفضحه ويشرق في سماء الطروس صببحه . سلام كزهر الروض أو نفضة الصبا أو الراح تجلج في يد الرشا الأملئ سلام عاطر الأردن ، تحمله الصبا سارية على الرند والبان ، إلى مقام حضرة المخلص الوداد ، الذي هو عندي بمنزلة العين والفؤاد ، صاحب الأخلاق الحميدة ، حلية الزمان الذي حل به معصمه وجيده » (٢) .

على أن بعض النثر قد خطا خطوة أبعد من تلك الأغراض الساذجة ، كما تجرر بعض الشيء من التهافت والمحسنات ، وأصبح يحمل زاداً فكرياً حيناً ، وتجارب إنسانية حيناً آخر ، ويحاول أن يأخذ شكلاً جديداً غير شكل الرسالة

(١) أعلام من الشرق والغرب لمحمد عبد الغني ص ٦٤ .

(٢) إنشاء العطار ص ١٢ .

والمقامة وما إليهما . وكان باكورة ذلك كتاب « تخلص الإبريز في تلخيص باريز » لرفاعة الطهطاوى . هذا الكتاب الذى تحدث فيه رفاعة عن رحلته إلى باريس ، ووصف كثيراً من انطباعاته ومشاهداته ، كما نقل عديداً من المعارف والنظم والقوانين التى أعجب بها فى فرنسا .

ورغم أن الكتاب قد جاء مزيجاً من خصائص كتب الرحلات والكتب العلمية ، والتقارير الرسمية ، مع خلو تام من كل عنصر روائى ؛ فإن بعض الباحثين يعتبره البذور الأولى للرواية التعليمية فى الأدب الحديث ، وذلك لتقدمه ما قدم من معارف من خلال رحلة ؛ ثم تمهيده لأعمال جاءت بعد ذلك فيها الهدف التعليمى وفيها كثير من العناصر الروائية (١) .

والكتاب بعد ذلك ذو قيمة كبيرة من الناحية الفكرية ؛ فهو صورة لاحتكاك عقلية أزهريه مستنيرة بالحضارة الأوربية ، وهو كذلك صورة لجرأة مثقف مصرى فى وصف قيم ديمقراطية وأنظمة دستورية رآها فى فرنسا ، وأعجب بها ، وأعلن هذا الإعجاب فى بيئة كانت تحكم فى تلك الآونة حكماً استبدادياً غاشماً (٢) . وقد ذكر رفاعة أن الذى نبهه إلى تأليف هذا الكتاب هو أستاذه الشيخ حسن العطار ، فهو يقول فى المقدمة : « فلما رسم اسمى فى جملة المسافرين ، وعزمت على التوجه ؛ أشار على بعض الأقارب والمحبين ، لا سيما شيخنا العطار - فإنه مولع بسماع عجائب الأخبار ، والاطلاع على غرائب الآثار - أن أنبه على ما يقع فى هذه السفرة ، وعلى ما أراه وما أصادفه من الأمور الغريبة ، والأشياء العجيبة ؛ ليكون نافعاً فى كشف القناع عن هذه البقاع » (٣) .

ويقول رفاعة معلقاً فى كتابه على ما أورد من نصوص الدستور الفرنسى :

« إن سائر الفرنسيين متساوون قدام الشريعة ؛ معناه سائر من يوجد فى

(١) تطور الرواية العربية للدكتور عبد المحسن بدر ص ٥٢ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ص ٥٧ .

(٣) تخلص الإبريز ص ٤ (طبعة وزارة الثقافة) .

بلاد فرنسا من رفيع ووضيع ؛ لا يختلفون في إجراء الأحكام المذكورة في القانون ؛ حتى إن الدعوى الشرعية تقام على الملك ؛ وينفذ عليه بالحكم كغيره . فانظر إلى هذه المادة فإنها لها تسلط عظيم على إقامة العدل ؛ وإسعاف المظلوم ، وجبر خاطر الفقير ، بأنه كالعظيم نظراً إلى إجراء الأحكام . ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنسيين ، وهي من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية ، وتقدمهم في الآداب الحضارية ^(١) .

على أن لرفاعة عملاً آخر أكثر أهمية في هذه الناحية من ذلك الكتاب ،

هذا العمل هو ترجمته « لمغامرات تليماك » Les Aventures de Telemaque التي كتبها القس الفرنسي فينيان فونيلون Fenelon - وقد سمي رفاعة الترجمة « مواقع الأفلاك في وقائع تليماك » . ولعل الأدب العربي الحديث لم يعرف ترجمة لرواية فرنسية قبل ترجمة رفاعة لتلك الرواية ، وهكذا تأتي أهمية تلك الترجمة أولاً من حيث إنها أول مظهر من مظاهر النشاط الروائي في مصر خلال العصر الحديث ، ثم تأتي أهميتها ثانياً من حيث ما اشتملت عليه من نقد لاستبداد عباس الأول ، ومن دعوة محجبة للمصريين إلى التآزر والاتحاد للمقاومة والخلوص ، ثم تقديم لبعض قيم الديمقراطية ومبادئ الحرية ^(٢) .

فقد ذكر رفاعة أنه قصد بترجمة تليماك : « إسداء نصائح إلى الملوك والحكام ، وتقديم مواعظ لتحسين ساوك عامة الناس » . ولكن يلاحظ بوضوح أنه اختار هذه الرواية بالذات لكونها أنسب الأعمال لحاله وموقف عباس منه ، حين اضطهده ونفاه إلى السودان . ولذا نرى رفاعة في تليماك يتحدث عن الملك المصري الذي ينفى « منظور » إلى السودان بسبب بعض الوشائيات ، ثم يتحدث عن ملك جديد يتولى المُلك بعد الملك السابق ويطلق سراح جميع الأسرى ^(٣) . وهو في ذلك يوشك أن يتحدث عن نفسه ونفى عباس له ، وتطلعه إلى حاكم عادل يأتي بعد عباس .

(١) انظر : تخلص الإبريز ص ٨٠ .

(٢) انظر : تطور الرواية العربية ص ٥٧ - ٦٠ .

(٣) انظر : وقائع تليماك ص ١٨ وما بعدها .

ونراه في موضع آخر يقول : « الملك هو ولي الأمر في الرعية ، بأمر وينهى ، وأحكام المملكة وقوانينها تجري عليه . . . وإذا أساء الاستعمال تغل يده ؛ فإن الأهالي سلمته الشرائع ودبعة بشرط أن يكون أبياً للرعايا بموافقتها » (١) .

وهو هنا يوشك أن يسمى عباساً ويحرض عليه .

وفي موضع ثالث يقول : « . . . فالحكمة الإلهية التي أوجدت البرية من العدم ؛ تحب أن تكون بينهم رابطة تربطهم بالاتفاق والاتحاد ، وأن يكونوا إخواناً ؛ فإن جميع البشر أبناء رجل واحد ، انتشروا في جميع جهات الأرض ، فإذا كلهم إخوان ، ومحبة الإخوان واجبة ، فويل لأهل الجحود الذين يتطلبون الفخار بسفك الدماء » (٢) .

وفي ذلك ما فيه من دعوة إلى التجميع وتعريض بالطغاة .

وأخيراً نلاحظ أهمية أخرى لهذه الترجمة ؛ وهي أن لغتها أسلس وأقرب إلى الجمال من لغة الكتاب الأول ؛ وذلك لتقدم أسلوب رفاة في الفترة التي بين الكتابين (٣) . ومن هنا يعتبر الكتاب بالإضافة إلى كل ما تقدم . خطوة في سبيل تحسين النثر العربي وتطويره .

وأخيراً هناك ظاهرة جديدة بالتسجيل تتعاق بالآدب في تلك الحقبة . وهي الالتفات من بعض الكتاب إلى موضوع الوطن والوطنية . بالمفهوم الحديث تقريباً ؛ فقد كان الوطن من قبل ذائباً في جملة العالم الإسلامي أو دولة الخلافة ، وليس له دلالة خاصة . وبالتالي ليس هناك كتابات تدور حوله وتتغنى به . أما الآن ومع كتابات رفاة الطهطاوي بصفة خاصة ؛ فنحن نجد فكرة الوطن تبرز . والتغنى به يبدأ ، حتى ليتمكن أن يعتبر ما كان من ذلك حجر الأساس

(١) المصدر السابق ص ٦٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١٩٧ .

(٣) طبع تخليص الإبريز أول مرة سنة ١٨٣٤ ، وطبع مواقع الأفلاك أول مرة سنة ١٨٦٧ .

فالمدّة بينهما تزيد على ثلاثين عاماً .

في الأدب المصري القومي في العصر الحديث (١) .

وهكذا نرى أن رفاعة الطهطاوي يعتبر واضع بذور التجديد في الأدب المصري الحديث ، فأدبه يمثل دور الانتقال من النماذج المتحجرة التي تحمل غالباً عفن العصر التركي إلى النماذج المجددة التي تحمل نسمات العصر الحديث .

(١) انظر : في الأدب الحديث لعمر الدسوقي ج ١، ص ٣٢ .